المحاضرة السابعة : العلاقات بين الأندلس الأموية والممالك النصرانية:

1- العوامل والظروف المتحكمة في العلاقات

أ- العامل الطبيعي :

قسوة الطبيعة في الأراضي التي تأسست بها الممالك النصرانية جعلتهم يفكرون في استعادة أراضيهم من المسلمين والقضاء عليهم .

ب- العامل الديني :

كان من الجانبين بحيث عمل المسلمون على استمرار الفتوحات وعمل النصارى على محاولة الحفاظ على ديانتهم والإنتصار لها والوقوف في وجه انتشارالإسلام .

ج- العامل السياسي :

لم يكن نشر الإسلام عند المسلمين الدافع الوحيد في علاقاتهم مع النصارى وإنما كان يصحبه دائما الرغبة في توسيع مناطق النفوذ واستحداث ولايات جديدة .

وبالنسبة للمالك النصرانية أيضا لم تكتف بالمناطق التي أسست فيها ممالكها وإنما كانت تسعى دائما لتوسيع النفوذ السياسي من خلال الاستحواذ على الأراضي الإسلامية .

د- العامل الاجتماعي :

حاول المسلمون الاستلاء على أراضي النصارى بتوظيف جميع الوسائل كالأسرى والتجار وذلك بإعطائهم تعليمات لنشر الإسلام في أوساط الرعية النصرانية إذ ما قبض عليهم كالأسرى أو دخلوا إلى أراضي الممالك كتجار .

2 - طبيعة لعلاقات بين الأندلس والممالك النصرانية:

تميزت العلاقات بين الأندلس الأموية والممالك النصرانية بالعداء في أغلب الأوقات ، حيث شهدت هذه المرحلة حروبا ومعارك طاحنة بين الطرفين وحملات متواصلة من الجانبين الهزائم والانتصارات من الطرفين ، لكن هذا لا يمنع من وجود تأثيرات حضارية مست الميدان الاجتماعي والثقافي والاقتصادي للطرفين .

وقد تحكمت في هذه التأثيرات بعض العوامل و الأسباب نذكر منها :

أ-العلاقات التلقانية :

وهي العلاقات التي فرضت نفسها بعد نشأة الممالك الاسبانية ، بحيث أن بعض الفئات أصبحت مجبرة على العيش بين المجتمعين ، مجتمع الممالك النصرانية والمجتمع الأندلسي ، ومن بين هذه الفئات **المدجنون** هؤلاء الذين بقوا على ديانتهم الإسلامية بعد سقوط بلادهم بيد النصارى ، بحيث تشير بعض الدراسات إلى أن تواجد المدجنين بين النصارى يعود إلى ما قبل قيام الممالك النصرانية وهذا في عصر الولاة بعد تراجع المسلمين عن بعض المناطق وإستردادها من قبل النصارى وبقاء أغلبية من المسلمين بها .

كان المدجنون جزء من التاريخ الذي كون تاريخ الممالك الاسبانية فعند قيام هذه الممالك تتم معاملة هؤلاء معاملة حسنة وذلك لحاجة هذه الممالك في بداية النشأة إلى العمال والمزارعين، ويتحكم أيضا في نشأة العلاقات التلقائية هذه طائفة المستعربين وهم نصارى استمرت إقامتهم بدولة الأندلس الإسلامية ، إضافة إلى الزواج المختلط الذي مس من جهة اليهود والنصارى ومن جهة أخرى النصارى والمسلمين ، بحيث يتزوج العديد من المسلمين بنصرانيات . وقد كان لهذا الإختلاط دور كبير في توجيه وتحديد طبيعة العلاقة .

ويمكن القول أن هذه الأسباب أدت لأن تكون العلاقات في القرن 4 ه ودية نوعا ما بحيث اقتنع النصارى ، بوجود كيان سياسي لشبه الجزيرة أثبت ذاته عسكريا وعلميا وخضع النصارى للواقع وبدأ ملوك النصارى بإرسال بعثات طلابية للنهل من علم الأندلس لكن لم تكن العلا قات ودية دائما ،إذ كانت هناك صراعات عسكرية وحروب متواصلة من جهة أخرى ولجأ ممالك النصارى لتوظيف العلاقات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية التلقائية في علاقات رسمية فطالبوا بتبادل السفراء وفرضوا على الأندلس علاقات دبلوماسية كما وظفوا هذه العلاقات من جهة أخرى في صراعهم العسكري مع الأندلس الإسلامية وذلك بتوظيف النساء النصرانيات في القصور والبعثات الطلابية ، والتجار وبالأخص اليهود وذلك لنقل معلومات الدولة الإسلامية الأندلسية إلى ممالك النصارى عن طريق ممارسة عمل الجوسسة أو بتكليف أحد منهم لزرع الفتنة في المجتمع الأندلسي حتى يستغل في الصراع العسكري ، مما يتيح للنصارى الفرصة باقتحام المدن الإسلامية وإخضاعها .

وعلى الرغم من توظيف الممالك النصرانية لكل هذه الأساليب في العلاقات مع الدولة الإسلامية بالأندلس إلا أن الأندلسيين لم يغفلوا عن جبهة الصراع العسكري بحيث حققوا انتصارات كثيرة ضد النصارى كموقعتي الزلاقة والأرك .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعد موقعة الزلاقة بدأ التضييق على المدجنين في صفوفهم وضماناتهم واجتهد رجال الدين في التأليب عليهم وفساد أمرهم وتعرضوا حتى للتقتيل ، وقد هاجر الأغنياء منهم والأعيان والرؤساء ورجال الدين وخلفوا وراءهم الضعاف والمزارعين

والعمال ، وأصبحت هذه الفئة بعد رحيل أعيانها دون قيادة تحفظ وحدتها وتدافع عن دينها ، وما جعل النصارى يظلمونهم هو هويتهم فقد أدى انهزام النصارى في الزلاقة إلى تقوية شوكتهم داخل هذه المدن ضد المدجنين حتى لا يتمكنون من التخطيط للمقاومة والدفاع عن دينهم ، هذا فضلا عن استنكارالنصاربهم للتأثير الحضاري الصادر من المدجنين اتجاه المجتمع النصراني .

ب ـ مظاهر العلاقات الحضارية بين الأندلس الإسلامية والممالك النصرانية:

لم تكن مظاهر العلاقات الحضارية وحدها حاضرة في طبيعة العلاقات بين الطرفين وإنما كانت هناك مظاهر أخرى للعلاقات العسكرية والدبلوماسية .

وتمثلت هذه المظاهر في الجانب الدبلوماسي في استقبال الوفود في بلاط الحكم بين الطرفين وعقد معاهدات ،والاتفاق على شروط تسليم الأسرى ، أما في الجانب العسكري فمثل مظاهر الصراع في هذا الجانب من العلاقات .

وتجسد ذلك في الحملات العسكرية التي شنها النصارى في عصور مختلفة على الأراضي الإسلامية ،وتمثلت في الحروب الطاحنة بين الطرفين وفي المعارك التاريخية بين الطرفين والتي خلفت في كل مرة انتصارا لحساب طرف كمعركة في العهد المرابطي والأرك في العهد الموحدي التي انتصر فيها المسلمون وحدد بعض الباحثين تاريخ بعض المعارك كبداية لمراحل سقوط الأندلس كمعركة العقاب في العهد الموحدي

أما المظاهر الحضارية فهي كثيرة ومتنوعة أهمها :

- اتصاف المسلمين بالتسامح الديني تجاه النصارى مما جعل النصارى مستقرين بالأراضي الأندسية ، يفضلون حكم المسلمين على حكم الفرنج أو القوط والقساوسة أنفسهم صرحوا بارتباطهم بحكم المسلمين .

- سمح المسلمون للنصارى بتعليم أبنائهم الصغار تعاليم ديانتهم المسيحية ولم يفرضوا عليهم الإسلام .

- لجأ النصارى إلى تمليك الأراضي لكل نصراني مستعرب شرط أن يترك الأراضي الإسلامية لكن حدث أن فضل المستعربون البقاء في الأراضي الإسلامية .

- فرض المسلمون على النصارى المقيمين معهم حسن المعاملة والإستظراف في معاملتهم اليومية مما أدى بالنصارى الى التخلي عن طبيعتهم الهمجية.

- كان المسلمون كثيري الحرص على تعليم أبنائهم الفروسية وكان لتعليم الفروسية شروط منها الصلاح ، الكرامة ، الشجاعة ، القريحة الشعرية ، وقد كان النصارى يرسلون أبناءهم لتعلم الفروسية وكان العرب المسلمون لا يعلمونهم الفروسية إلا إذا أكتسبواخصالها وشروطها.

لم تكن العلاقات الحضارية التي انتقلت للمالك النصرانية رسمية فقط بل كانت هناك علاقات غير رسمية أو عن طريق النصرنيات اللواتي كن جواري في قصور الأمراء والخلفاء ويتنقلن من حين إلى آخر إلى الممالك الاسبانية مع وفد رسمي فنتقلت هؤلاء النصرانيات عادات الطعام والشراب وانتقلت عادات الامتناع عن أكل لحم الخنزير هذا التأثير الحضاري جعل النصارى من ملوك رجال الدين يحسون بخطر انصهار الهوية النصرانية في الهوية الإسلامية فحاولوا أن يعطوا لمؤسساتهم الدينية وبالأخض الكنائس نفس النهج ، فأصبحت الكنائس تقلد المساجد والرباطات وتفتح أبوابها للمارة من النصارى وتقدم لهم الطعام والشراب والمبيت ولم يكن هذا موجودا في نهجهم قبل تواجد المسلمين بالأندلس .

كان أحيانا النصارى يحسون بغياب القيم الروحية في الكنيسة ، فكانوا يقلدون المسلمين في بعض الشعائر كزيارة القبور والتصدق بما يزيد عن حاجة الشخص من ماله أو طعامه .

طال التأثير الحضاري عن طريق العلاقات الرسمية وغير الرسمية الحياة الداخلية للنصارى من حيث الاحتفال بالمولود الجديد وأنواع الأغاني التي تردد والملابس التي يرتدونها أهل المولود ، قبل مجيئ المسلمين لم يكونوا يحتفلون بالمولود إلا بتعميده بالكنيسة وترديد بعض الترانيم .

لكن هذه التأثيرات الحضارية لم تمنع من استمرار الحروب والصراعات بين الطرفين كما استمرت العلاقات الودية والرسمية والتحالفات حتى بعد سقوط الدولة الموحدية ونشأة مملكة بني الأحمر والدول الثلاث ببلاد المغرب الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط والدولة المرينية بالمغرب الأقصى أما التأثير الحضاري بالأندلس فقد استمر ومازال مستمرا إلى يومنا هذا ، كما أن العلاقات لم تكن مع الممالك النصرانية الاسبانية فقط وإنما كانت أيضا مع الجمهوريات الإيطالية وغيرها من ممالك وإمارات العالم المسيحي وهذا ماسنراه في المحاور القادمة .